

تجليات الليل في الشعر العربي المعاصر

أ. جميلة سيش

جامعة باتنة

ملخص المقال:

لقد كتب العديد من الأدباء و الشعراء عن الطبيعة و امتزجوا بها، فصوروا ما فيها من مناظر خلابة وكان الليل في مقدمة هذه الظواهر التي تغتوا بها واستلهموها في أشعارهم ، والمتأمل للشعر العربي يجده مليئاً بصور الليل الذي كان مصدر إلهام الشعراء قديماً و حديثاً.

من هنا يأتي هذا المقال ليتناول صورة الليل في الشعر العربي المعاصر، و يتقصى من أجل ذلك أشكال توظيفه من طرف الشعراء العرب المعاصرين ، ويكشف عن طرق تجلياته في أشعارهم ، ليأخذ دلالات و أبعاداً ووظائف رمزية متعددة من خلال أعمالهم الشعرية.

تتناغم الحياة وينسجم الكون في تنظيم محكم ليخبر عن قدرة الخالق الواحد و عن عظمة آياته؛ بحيث يتعاقب الليل و النهار لتنبثق الحياة ما بين الظلمة و النور، يقول -عز وجل- في الآية الكريمة: "ثُلُجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَثُلُجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"⁽¹⁾، فهذه الثنائية تشكل عصب الحياة ، و المحور الذي يدور حوله كل شيء في هذا الوجود من إنسان وحيوان و نبات و جماد.

لقد كان الليل ولا يزال رفيق الإنسان شاعراً كان أم أديباً أم عابداً أم مهموماً وحيداً أم عاشقاً، فهو يتلون بألوان شتى، ويأخذ دلالات عدة. إنه رمز للسكينة و الهدوء، للسهر و السمر، للعشاق و تذكر الأحباب للمرضى و الحزاني، للعباد و الزهاد، للعلماء، للشعراء و الأدباء... الخ، من هنا يمكن تقسيم الليل إلى أنواع:

ليل العاشق: فالعاشق الولهان يتخذ من الليل رمزاً لوصف حبيبته و مدى اشتياقه إليها، فهذا البدر وهذه النجوم المتألثة في السماء تذكره بمعشوقته التي يحن إلى لقاءها، و قد يُطلق العنان لخياله فيسري طيف من يهواه زائراً له ليخفف عنه ما يلقاه من شوقٍ و حرقة و ألم بسبب البعد عن الحبيب، و في ذلك يقول ابن حزم الأندلسي⁽²⁾:

زار الخيال فتى طالت صابته على احتفاظ من الحراس و الحفظة

فبت في ليلتي جدلان مبتهجاً ولذة الطيف تُنسي لذة اليقظة

ليل الوحيد المهموم و الحزون: الذي يشكو بته و حزنه إلى الله تعالى في هذا الليل الطويل الذي يُشاركه حزنه و وحدته، فهو ينتظر -بفارغ الصبر- انجلاءه و قدوم صبح جديد كما انتظره (إمرؤ القيس) حين قال⁽³⁾:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه و أردف أعجازاً و ناء بكلكل

ألا أيتها الليل الطويل ألا انجلي بصبح و ما الإصباح منك بأمثل

فهذه الصورة التي رسمها الشاعر ليل الطويل تجعلنا "نحس بثقل الهموم على نفسه و كيف أنها انتشرت و امتدت في كل زاوية من زوايا نفسه في اطمئنان و هدوء و كآبتها وجدت هناك مكانها المريح"⁽⁴⁾.

ليل العابد: أما العابد المتعهد فيجد في الليل فرصة للخلو بنفسه يناجي ربّه في ظلمات الليل فترتقي روحه و تسمو نفسه و يكون قاب قوسين أو أدنى من معشوقه و خالقه ومولاه ، يقول (ابن عربي)⁽⁵⁾:

مايتقي الله إلا كل ذي نظرٍ مُسدّدٌ مُجتبى قد حصّه الله

يقطعُ اللَّيْلَ بالتسبيح بين يد مولاهُ دامعةٌ في اللَّيْلِ عيناه

يقول ياسيدي يامنتهى أُملي ما للعبيد رحيماً غيرُ مولاہ

ليل العالم: هو ليل يستأنس به

صاحبه ويتخذ منه مطية للتزود بالعلم و المعرفة و يحببه طلبا للعلم و في ذلك يقول الإمام الشافعي (6) :

بقدر الكدِّ تكتسب المعالي ومن طلب العُلَى سهر اللَّيالي

ومن رام العلى من غير كدٍّ أضاع العُمر في طلب المحال

تروم العزَّ ثمَّ تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلي

ليل الشاعر: أما ليل الأدباء و الشعراء فمميّز و هو مصدر إلهامهم، وبخاصة إذا انطبقت عليهم الأوصاف السابقة من تعبد و حزن و عشق فجتمع لديهم كلّ عناصر الإبداع و القوة، وتنطلق ألسنتهم بروايات و قصص مثيرة و قصائد رائعة يكون الليل عمادها، فنجد العديد من الأعمال القصصية تحمل عنوان الليل من مثل: قصص ألف ليلة و ليلة ، و (خيول الليل و النهار) لمرزاق بعطاش و (حطاب الليل) لعزي بوخالفة و (الأيام و الليالي) لإدريس الخوري، وروايات من مثل: (ليلة العشق و الدّم) لإبراهيم عبد المجيد، و(عابرو الليل) لعمر مناصرية، ورواية (فضل الليل على النهار) لياسمينه حضرة...

كما أن الشعراء تغنّوا بالليل في أشعارهم، و للشعر العربي "في وصف الليل لوحات خالدات في متحف الفن تُضاهي بدقتها أروع لوحاته في الآداب العالمية، إن لم تفقها بترعتها الوجدانية العميقة. فمنذ العصر الجاهلي و الشاعر العربي ينفعل بجنات الليل الواسعة، يمد نحوه ناظريه فيستوحيه، و يستمد منه أسمى المعاني و دقائق التخيلات". (7)

و الملاحظ لحركة الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى اليوم يجد أن الشعراء يهتمون بوصف الليل و يرون فيه مصدر إلهامهم، فهو يُثيرهم شعريا و يحرك جذوة الإبداع عندهم، لكونه من بين الأوقات التي يُفجر فيها الشاعر طاقاته الإبداعية، و في هذا الصدد يقول (ابن قتيبة): "وللشعر أوقات يُسرّع فيها أثبه و يسمح (فيها) أثبه. منها أول الليل قبل تغشّي الكرى..." (8) . صحيح أنّه صامت سكوت لكنّه عند الشاعر المعاصر يتكلم و يحكي لنا الكثير من الحكايات العجيبة و ييوح بأسرار شتى بل إنّه يستوعب أكثر من ذلك ، ويتجلى توظيف الليل في الشعر العربي المعاصر إما من خلال عناوين القصائد و الدواوين التي يصدرها الشعراء العرب المعاصرون و إما في موضوعات قصائدهم فيوظّفون الليل كرمز له دلالات عدة.

أولا: الليل كعنوان:

لقد جعل الشاعر العربي المعاصر من الليل عنوانا لقصائده و دواوينه، فهو إما أن يصوغ عناوينه مصرحا فيها بدال الليل كأن يتكون العنوان من لفظة الليل مع كلمة أخرى أو أكثر، أو أن يكون العنوان متضمنا معنى الليل الذي يفهم من المفردات القريبة من حقله الدلالي مثل: الظلام، العتمة، السواد، الخالك الفجر، الهلال، القمر، البدر، النجوم، السهر، السهاد...

و بناء على ذلك يمكن أن نتناول تحليلات الليل في عناوين قصائد ودواوين بعض الشعراء العرب المعاصرين على النحو التالي:

الشاعر	تحلي العنوان	
	صريح	
	القصيدة	الديوان/المجموعة الشعرية
أحمد مطر	-ياليل...ياعين -صباح الليل يا وطني -ليلة.	
أمل دنقل	-بكائية ليلية -بكائية الليل و الظهيرة -أشياء تحدث في الليل	-مقتل القمر

السَّيَّاب	- في الليل. - في ليالي الخريف - الليلة الأخيرة - في الليل - من ليالي السهاد: ليلة في لندن - ليلة في باريس - ليلة وداع - ليلة انتظار - إقبال و الليل - ياليل - ليلة القدر	- في غابة الظلام - في القرية الظلماء - رحل النهار - سهر	
صلاح عبد الصبور	-انتظار الليل و النهار -تأملات ليلية -رحلة في الليل -أغنية ليل	شجرة الليل	
عبد العزيز المقالح	-ياليل -مواجيد ليلية -أحزان الليل الأخيرة من حياة عمارة اليمني. -بيروت الليل والرصاص .. وتل الزعتري. -من تداعيات الليلة الأخيرة للمتني في مصر		
عبد المُعْطِي حجازي	-أغنية في الليل	-قصيدة حب في الظلام	-كائنات مملكة الليل
عبد الوهاب البياتي	- من أحزان الليل - الليل فوق نيسابور -الليل في كلِّ مكان -الليل و المدينة و السل -شيء من ألف ليلة -كابوس الليل و النهار	-المغني و القمر -سماء بلا نجوم -قمر المعرة -أفول القمر	
فدوى طوقان	-ليل و قلب - و أنا وحدي مع الليل -كوابيس الليل و التَّهَار		
محمد عفيفي مطر	-ماذا يقول منتصف الليل	-الجوع و القمر	

- حواجز منتصف الليل		- الصوت و القمر - ثنائية القمر و العنف واللصوص	
محمد الفيتوري	- الليل والحديقة المهجورة - ليلة السبت الحزين		
محمود درويش	- خطوات في الليل - هنالك ليل - آخر الليل - ليلة البوم - ليل يفيض من الجسد - ليلاً من ليلاً - قطار منشورات منتصف الليل	- آخر الليل	- حنين إلى الضوء - خائف من القمر - السجين و القمر - سقوط القمر
معروف الرصافي	- ليالي الأنس		
معين بسيسو	- إلى عيني غزة في منتصف ليل الاحتلال الإسرائيلي - من مذكرة الليل - قطار منشورات منتصف الليل		- القمر بعد ثمانية عشر عاماً - القمر ذو الوجوه السبعة - القمر المحنط
نازك الملائكة	- ليلة ممطرة	- عاشقة الليل - الليل و الفرسان	

ثانياً: الليل كرمز:

طرح شعر الحداثة العربية عدة أنماط من الرموز الفنية التي تمكنت من تكثيف تجربته الجمالية في علاقته بالواقع الاجتماعي - التاريخي الذي راح يتنامى فيه، بحيث جاءت هذه الرموز بوصفها معادلاً فنياً موضوعياً للهواجس الاجتماعية و الفردية التي برزت مع بروز هذا الشعر.⁽⁹⁾

لقد ارتقى الشعراء العرب المعاصرون في أحضان الطبيعة برموزها و مناظرها الخلابة، وأدركوا قيمة الليل فراحوا يتغنون به في أشعارهم، وينفثون فيه كلّ لواعج صدورهم عليه يخفف عنهم ما يعانون من قلق و ألم و حزن و حيرة و وجدوا فيه ملاذاً آمناً يلجؤون إليه للتعبير عن الكثير من القضايا التي شغلت فكرهم، واتخذوا من الليل رمزاً يمكنهم من إبراز مكنونات نفوسهم ومواجهة التحديات المعاصرة التي توترق الإنسان في هذا العصر ، فتخطّوا بذلك صورة الليل كظاهرة طبيعية مألوفة إلى أبعاد أخرى تفهم من سياق القصيدة العام.

استخدم العديد من الشعراء العرب المعاصرين الليل في أشعارهم و تلوّن عند كلّ واحد منهم بطبيعة صاحبه وبالجمتمع الذي يعيش فيه ، وبطبيعة العصر الذي يحياه، فتعددت صورته وتشعبت تبعاً لثقافة هذا الشاعر أو ذاك فجاءت قصائدهم تحمل قيماً روحية ووجدانية و ثقافية مختلفة.

واستطاع بذلك الشاعر العربي المعاصر أن يعبر عن واقعه و عما يحول في خاطره من أفكار و يزدحم في نفسه من أحاسيس و مشاعر تزداد و طأثها في الليل، حيث يترجمها إلى تلك القصائد الجميلة المبدعة.

و الملاحظ أن صورة الليل و ملامحه تتغير و تتبدل من شاعر إلى آخر بل عند الشاعر الواحد بحسب حالاته النفسية؛"فالليل في التجربة الشعرية يتلون بانفعالات الشاعر ورؤيته فيصبح في إطاره النفسي متعدد الألوان و السمات وذا أوجه متغايرة و متقلبة تنسجم وتارات النفس.

فأحيانا يبدو الليل جميلا حبيبا، و أحيانا حزينا كئيبا، و أحيانا طويلا ثقيلا، وأخرى غامضا رهيبا...

فيكتسب بذلك أبعادا دلالية تُعبر عن موقف الشاعر النفسي أو تجربته الشعورية." (10)

و بذلك يصبح الحديث عن الليل عند الشعراء هو حديث عن ألوان كثيرة من الليل، و من ثمة فإن رؤية الشاعر العربي المعاصر لليل تختلف تبعاً لحالاته النفسية و تقلباتها، فهو يحمل معاني الفرح و الحزن والأسى والتأمل والفكر.

و سنعرض في ما يلي كيفية تعامل بعض الشعراء العرب المعاصرين مع الليل و تعدد أساليبهم في تكوين رؤاهم عنه.

فمن التجارب الشعرية التي وقف البحث عندها تجربة الشاعر (محمود درويش) الذي استعمل الليل كرمز في شعره، وارتبطت دلالاته بصورة المستعمر المحتل الذي اغتصب أرضه و أخرج أهلها من ديارهم، يقول (11) :

..و أنا أنظر خلفي في هذا الليل

في أوراق الأشجار و في أوراق العمر

وأحدّق في ذاكرة الماء و في ذاكرة الرمل

لا أبصر في هذا الليل

إلا آخر هذا الليل

دقات الساعة تقضم عمري ثانية ثانية

وتقصّر أيضاً عمر الليل

لم يبق من الليل و مني وقت نتصارع فيه..وعليه

لكن الليل يعود إلى ليلته

وأنا أسقط في حفرة هذا الظل..

فهو يتخذ من الليل رمزا للتعبير عن القضايا المهمة و التحديات المعاصرة التي تواجه الإنسان المعاصر كقضية الأرض و مقاومة الاستعمار الذي يرى بأن نهايته قد أصبحت وشيكة، يقول (12) :

أرى ما أريد من الليل:إني أرى نهايات هذا الممرّ الطويل على باب إحدى المدن فعدم الاستقرار السياسي وظروف الاحتلال و إحساسه بالغربة في وطنه...كل ذلك انعكس في شعر (محمود درويش)، وتجلّى من خلال رمز الليل الذي جعل منه الشاعر وسيلته للتعبير عن رؤيته السوداوية للمستعمر الذي يتقاسم مرارة ذله مع إخوانه الفلسطينيين.

أما الشاعر(أحمد مطر) فيتخذ من الليل رمزا من رموزه الشعرية للتعبير عن إحساسه بالغربة في وطنه ورفضه للواقع السياسي الذي يعيشه في هذه المدينة الظالم حكامها، فكان الليل هنا رمزا للديكتاتور الذي يُدمر الإنسان باستبداده و فساد حكمه ، يقول في قصيدته (صباح الليل يا وطني)(13) :

صار النهار ليلة داجية

من شدة الظلمة

صارت لا ترى طريقها الأحلام!

قلنا عسى أن يكتفي

لم يكتف النظام

صار الظلام دامسا
لو سافر المرء إلى أعماقه
لمات في حادثة اصطدام!
قلنا هنا سيكتفي
لم يبق شيء عندنا لم ينطفي
لم يكتف النظام!

خلاصة الكلام

مد النظام كفه.. وأطفأ الظلام!

يجسد الشاعر من خلال هذه الأبيات مأساة وطنه الذي يُعاني من قهر النظام و استبداد الحكام حتى استحال كل شيء فيه إلى ظلام؛ نهاره قاتم و حاله و ليله داج و ظلامه دامس من شدة الظلم و كبت الحريات إلى درجة أن الإنسان منع فيه حتى من الأحلام التي أطفأها النظام بإطفائه للظلام مصدر الأحلام.

لقد كان الشاعر العربي المعاصر شديد التأثر والإحساس بمعاناة الناس التي جعلته يحترق في صمت وأخذت تكويه بنيرانها، فلم يعد يملك إلا أن يلجأ إلى الطبيعة ليستلهم رموزها ويوظفها في شعره الذي يصور بحق الحال المزرية التي آلت إليها البلدان العربية بسبب جور الحكام العرب وفساد الأنظمة، هذا ما جعل الشعر بالنسبة إليه ولادة جديدة ووسيلة خلاص للإنسان العربي الذي هضمت حقوقه واغتصبت أوطانه وبذلك أصبحت القصيدة لديه بناء مركبا وتجربة شعرية وروحية تعبر عن ذاته وعن الآخر وتجسد الصراع بين قوى الخير والشر وبين الحق والباطل، وتتضمن دلالات عديدة توحى برغبة الشاعر الشديدة في التغيير والتجاوز والانتقال إلى واقع جديد كله أمل في مستقبل زاهر تشع منه الأحلام والحرية والأمان والرخاء والسعادة...

هكذا اتخذ (أحمد مطر) من الليل عنوانا للمعاناة و الظلم و الاضطهاد، و أصبح رمزاً للنظام وللأوضاع السياسية المتردية، و المستقرى لشعره يلمس تلك الخصوصية الثورية- النضالية التي لا تبرح قصائده، و قد ترجمها وعبر عنها بلغة ساخرة متهكمة من الواقع المرير الذي يُخيم على الوطن العربي ككل.

و يرسم (عبد الوهاب البياتي) صورة مختلفة لليل في قصيدة تحمل عنوان (من أحزان الليل) يستهلها بقوله⁽¹⁴⁾ :

آمنت بالليل الذي لا ينتهي
و دفنت في جنح الظلام صباحي
و حطمت أفداحي على شفة الهوى
و لقد حطمت على الظما أفداحي

يبدأ المقطع الأول من القصيدة بمشهد الليل القاتم الذي آمن الشاعر بأنه لا ينتهي، فقد دفن صباحه في جنح الظلام، وحطم أفداحه مع الظمأ، و أصبح كل شيء مظلماً في هذه الحياة التي لم يعد يرى فيها سوى هاته القتامة التي ولدت في نفسه الإحساس بالإحباط، يقول⁽¹⁵⁾ :

ماذا أريد من الصباح و قد ذوى
زهر الربيع على ثمالة راحي
و شموعي اللائي أضأت بها الدجى
شربت سناها ضحكة الأرياح

لقد سيطر الإحساس باليأس و التشاؤم على الشاعر بعد أن ذوت أزهار ربيعہ ، وشربت ضحكة الأرياح سنا الشموع التي كان يضيء بها الدجى و أضحى يعيش في الظلام و الشقاء مما دفع به إلى مخاطبة الليل و مناجاته، وفي هذا يقول (16) :

باليل! ياغاب العطور!وياصدى
حي الذي قد مات قبل صداحي
هل في فضائك من خيال مار্দ
يهوي على ليلي بقبضة ماح؟
هل في نجومك من شهاب جامح
يُدمي على قبر الشباب جماحي

يتضح لنا من هذا المقطع من القصيدة أن(عبد الوهاب البياتي) يُناجي الليل و يسأله إن كان في فضائه خيال مار্দ ليهوي به على ليله الحزين بقبضة ماح، وأيضا شهاب جامح يُدمي على قبر الشباب جماحه، فهو هنا يستغيث بالليل على الليل: ليل الفرح و ليل الترح.

وعلى هذا يصبح الليلان المتزامنان في خيال الشاعر هما :ليل الماضي-زمن الفرح/وليل الحاضر-زمن الترح. (17)
هكذا استخدم الشاعر(عبد الوهاب البياتي) الليل كرمز يوح له بأسرار حياته شاكيا إليه كل ما يجده، فجاء شعره يصور خيسته و تمزق ذاته الحزينة عسى أن يرى في ليله شعاع نور أو أن يكشف عن صبح جديد تشرق فيه شمس الحب و الأمل في الحياة.
أما الشاعر (صلاح عبد الصبور) فإنّ ليله يرتبط بالمآسي و الأحزان و الهموم، و هو موحش و مقلق في غياب السكينة و الطمأنينة؛ لأنّه يُذكره بأحزانه و أشجانه يقول (18) :

الليل يا صديقتي بنفُضي بلا ضمير
ويُطلق الظنون في فراشي الصغير
و يُثقل الفؤاد بالسواد
و رحلة الضياع في بحر الحداد

يُحاول الشاعر من خلال هذه الأبيات أن يُصور أحزانه التي تُولد في أحضان الليل و أصبح يستشعرها عند مقدم كلّ ليلة ، وهو بذلك شبيه بليل الشاعر (أبي القاسم الشابي) من قبل ، حين قال (19) :

أيها الليل الكتيب أيها الليل الغريب
من وراء الهول من خلف نقاب الظلمات
في خلاياك تراءت لي أحزان الحياة

إن استغراق الشاعر(صلاح عبد الصبور) في التأمل و التفكير ولد في نفسه الشعور بالوحدة والاغتراب و المعاناة في هذا الليل البهيم ، الشيء الذي حرك فيه الإحساس بالحزن الذي يُعد من الملامح المهمة في تجربته الشعرية وهذا ما دفع(عز الدين إسماعيل) إلى أن يقول:"وربما كان الشاعر(صلاح عبد الصبور) أكثر شعرائنا المعاصرين حديثا عن الحزن.ومع ما يتخلل قصائده عن الحزن من مشاهد حية، ومن مواقف إنسانية يتجسم فيها الباعث عن الحزن، فإنّ قصائده الأخرى (...).أبعد في دلالتها و أشد التصاقا بالذات..". (20)

وليس من شك في أن حزن الشاعر العربي المعاصر يُترجم "إحساسه الإنساني بمحنة الذات الإنسانية في العصر الحاضر التي قامت على مشاعر من الغربة و الضياع و التمزق لعجزها عن الملاءمة بين منطقها ومنطق الوجود الخارجي، وإحساسها بالضالة في هذا الوجود اللامتناهي." (21)

كما ترتبط صورة الليل بالحزن و الموت عند الشاعر(صلاح عبد الصبور) الذي راح يحكي لصديقه قصة موت الطائر الصغير
الحزنة في ظلام الليل (22) :

إليك يا صديقي أغنية صغيرة
عن طائر صغير
في عشه وحيد الزغب
والفُ الحبيب
يكفيهما من الشراب حسوتا منقار
ومن يبادر الغلال حبتان
و في ظلام الليل يعقد الجناح صرة من الحنان
على وحيد الزغب
ذات مساء، حطّ من عالي السماء أجلّ منهوم
ليشرب الدماء
و يعلك الأشلاء و الدماء
وحار طائري الصغير برهة، ثم انتفض...
معذرة، صديقي ... حكايتي حزينة الختام
لأني حزين...

تعكس هذه الحكاية حقيقة الوجود، وتُعبّر عن ذات الشاعر الحزينة التي أدركت أن الموت أمر لا مفر منه إلى درجة أنه ربط حلول
الليل بموت النهار يقول في قصيدة(انتظار الليل والنهار) (23) :

وهكذا مات النهار
ومال جنب الشمس، واستدار
ثم تساقط المساء فوقنا،
مثل جدار خرب، واهار
واعتنت صحيفة السماء و الغبراء،
ولطختا الجبين بالغبار
وانطفأت نوافذ المرضى، وأنوار الجسور
أعين الحراس و المآذن
تكوّمت حوائط الظلمة في مداخل البيوت و المخازن
فانكفأت كهيئة مرصوفة كأنها مدافن
منهارة على بقايا جبل منهار

يكشف الشاعر في هذا المقطع عن مشهد الظلام الذي انتشر و عمّ كل شيء : نوافذ المرضى و أنوار الجسور مآذن المدينة ومداخل
البيوت و المخازن، وهذا حدث عندما"مال جنب الشمس و استدار" مما أدى إلى اختفاء الضياء و انتشار الظلمة و السواد في كل
مكان، يقول في مقطع آخر (24) :

سوية، يهبط السواد حين ينقضي الأصيل
فالشمس ألفت نظرة الوداع

و اتكأت مرهقةً على التلال

لكن الشاعر - رغم هذا الليل و هذا الظلام- لا يفقد الأمل في الحياة بل يبقى في انتظار بصيص نور يلوح في الأفق، يقول (25) :

و هكذا تمضي الحياة بي،

أعيش في انتظار

هل...!

لحظة مشرقة في ظلمات الليل

أو... لحظة هادئة في غمرة النهار

إنه ينتظر لحظة يُشرق فيها ليله أو لحظة هدوء يأتي بها النهار، و يتطلع إلى غد أفضل ومستقبل مُشرق.

هكذا أصبح الليل رمزا من رموز الحزن عند الشاعر العربي المعاصر ، و الحديث عن الحزن يُفضي بنا إلى ذكر بعض المعاني التي تتعلق به كالقلق و الغربة و الحنين و التأمل مثل ما هو مُلاحظ عند الشاعر (محمد عفيفي مطر) الذي يخلو بنفسه في هذا الليل، متأملا في سكونه وهدأته، فتزدحم الأفكار و الخواطر و الأسئلة في مخيلته، ويشرع في البحث عن الحكمة ليأخذ منها قبسا لأشعار علّما تُساعده في البحث عن الحقيقة يقول (26) :

أحدق في سكون الليل منهوما.. بأغوار

سؤال زبقي الروح..

أين أرى فؤاد الحكمة العاري

لأقبسَ جمرَةً منه لأشعاري

تُريني في الدجى لوني، حقيقة قلبي الضاري!!

سرحتُ بخاطري في الليل، أثقل جفني الخدرُ

ويقول في مقطع آخر (27) :

و حطت في سكون الليل أسرابٌ من الأفكار

تُهوّم في مناقرها أفانينٌ من الأسرار

لقد أخذ الشاعر يصغي في هذا الليل إلى كلّ ما يختلج في صدره من أحزانٍ و أوهامٍ و هواجس ويستمع إلى أحاديث الصمت الذي هاجت في عروقه كاسات من الأفكار ، يقول (28) :

ويا ليلاي قد أطمعتُ روحَ الليل أحزاني

وأورادي وألحاني

وهاجت في عروق الصمت كاساتٌ من الأفكار

وفي عينيّ شادوفٌ يصب الليلَ أوهاماً ضبايئة

ودوّامات أشباح، و غُدرًا من الآهات

لقد خيم الحزن على قلب الشاعر "عفيفي مطر" و تحوّل كلّ شيء في نظره إلى ظلام دامس، فقد حُمّل آلام الآخرين رغم صغر سنه مما أرهقه وأثقل كاهله، يقول على لسان ذلك الغريب الذي أتى إلى الحي يوما في قصيدة بعنوان (الطفل و الحزن) إلى عامي الخامس و العشرين": (29)

إنّ الحزن قد طاف عليا

حينما جفّت من الزيت القناديلُ البعيدة

وطوى الليلة طبا

وطواني إذ طوى الليل وصبَّ السَّمَّ في ماء الحياة
غير آتِي-و الرّدى يلهثُ في قلبي-انطلقتُ
أنظر الأرض التي شاخت و مازال الصَّبَا في كتفِيَا
لم أزل طفلاً وَحُمِّلْتُ على صدري آلامَ الرجالِ
كان حزن الجبل في قلبي..ولكنِّي أتيتُ
عاميَ الخامسُ والعشرون مازال يطير
باحثاً عن ذلك الطفل الصغير

إنّ الواقع الصعب الذي يتخبط فيه أبناء جيله يُلقى بظلاله الحزينة على روح الشاعر، الأمر الذي جعله يشعر بالغربة و الرفض لهذه الأوضاع التي يحياها الإنسان العربي المعاصر.

هكذا كان ليل الشاعر(عفيفي مطر)مصدر الصمت و الوحدة و القلق و الخوف من الآتي فهو يُجسد معاناته الروحية و النفسية في زمن طغت فيه المادة على القيم و الأخلاق، وبذلك أصبحت صورة الليل تُوحى بما يُعانيه من مشاعر الأسى و الغربة و الضياع و الحزن العميق الذي ينبع من تأملاته للواقع الإنساني في هذا الوجود، محاولاً أن يُجسد رؤيته له، و يُسمع صوت ذاته المتألمة المثقلة بالهموم و التي لم تعد قادرة على السكوت، وهذا لا يتحقق إلا في عالم الشعر.

و خلاصة القول أن مفهوم الليل عند الشاعر العربي المعاصر يتجاوز كونه ظاهرة طبيعية ليشمل دلالات أخرى تتعلق بالاستعمار و بالأوضاع السياسية للبلدان العربية، و بعضها الآخر يتمحور حول الخوف من المجهول و الحزن والأسى و الكآبة و القلق و الحيرة...و غيرها من المعاني التي تُستوحى من حالاته النفسية و تجاربه الشعورية المترسبة في لاوعي الإنسان المعاصر.

ومهما يكن من أمر فإنّ صورة اللّيل كانت و لا تزال تُشكل هاجساً عند الشعراء العرب قديماً وحديثاً فالكلّ يروم الكشف عما في جعبته متخذاً من الليل رمزا شعرياً، و تظل القصيدة تتضمن سر هذا الليل-الرمز الذي تأبى أن تبوح به إلا لمن هو أجدر على قراءتها و سر أغوارها..

قائمة المصادر و المراجع

- 1-القرآن الكريم رواية ورش.
- 2- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، مكتبة عرفة، دمشق، سوريا، (د.ط)، (د.ت).
- 3-ابن عربي:ديوان ابن عربي، شرح أحمد حسن سبيح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ، 1996م.
- 4-ابن قتيبة: الشعر و الشعراء، تحقيق و شرح:احمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1، ط2 1967م .
- 5-أبو القاسم الشابي: ديوان أبي القاسم الشابي، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط4، 1426هـ، 2005م.
- 6- أحمد مطر: الديوان (المجموعة الكاملة)، دراسة و تقديم : إسماعيل العقباوي، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط1 ، 2010م.
- 7-امرؤ القيس: ديوان امرؤ القيس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م.
- 8- سعد الدين كليب: وعي الحداثة(دراسات جمالية في الحداثة الشعرية)، منشورات إتحاد الكتاب العرب دمشق ، سوريا، 1997م.
- 9-السعيد الورقي: لغة الشعر العربي ، مقوماتها الفنية و طاقاتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، 1430هـ/2009م.
- 10-الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، بيت الحكمة، الجزائر، ط3 ، 2012م.

- 11- صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1972م.
- 12- عبد القادر الرباعي: جماليات المعنى الشعري (التشكيل و التأويل)، دار جرير للنشر و التوزيع، أربد، الأردن، ط1، 1430هـ/2009م.
- 13- عبد الوهاب البياتي: الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان - دار فارس للنشر و التوزيع، عمان الأردن، ج1، 1995م.
- 14- عز الدين إسماعيل: - التفسير النفسي للأدب ،دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، ط4، (د.ت).
- الشعر العربي المعاصر قضايا و ظواهره الفنية و المعنوية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ط5، 1994.
- 16- عمر فاروق الطباع: فنون الشعر العربي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ، 1992م.
- 17- محمد عفيفي مطر: الأعمال الشعرية من مجمرة البدايات، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ - 1998م.
- 18- محمود درويش: الديوان (الأعمال الأولى 3)، رياض الريس للكتب و النشر، بيروت، لبنان، ط2، 2009م.
- 19- نوال مصطفى إبراهيم: الليل في الشعر الجاهلي، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2009م.

الهوامش

- (1)-سورة آل عمران، الآية27.
- (2)-ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، مكتبة عرفة، دمشق، سوريا، (د.ط)، (د.ت)، ص: 95.
- (3)-امرؤ القيس: ديوان امرؤ القيس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، ص: 49.
- (4)-عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب ، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، ط4، (د.ت)، ص: 82.
- (5)-ابن عربي: ديوان ابن عربي، شرح أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ، 1996م، ص: 53.
- (6) - الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، بيت الحكمة، الجزائر، ط3، 2012 م، ص: 69.
- (7) -عمر فاروق الطباع: فنون الشعر العربي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ، 1992، ص: 88.
- (8) - ابن قتيبة: الشعر و الشعراء، تحقيق و شرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1، ط2، 1967 م، ص: 81.
- (9) - سعد الدين كليب: وعي الحداثة (دراسات جمالية في الحداثة الشعرية)، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997م، ص: 73-74.
- (10) - نوال مصطفى إبراهيم: الليل في الشعر الجاهلي، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2009 م، ص: 102.
- (11) - محمود درويش: الديوان (الأعمال الأولى 3)، رياض الريس للكتب و النشر، بيروت، لبنان، ط2، 2009 م، ص: 179.
- (12) - محمود درويش: الديوان (الأعمال الأولى 3)، ص: 184.
- (13) - أحمد مطر: الديوان (المجموعة الكاملة)، دراسة و تقديم: إسماعيل العقباوي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2010 م، ص: 606-607.
- (14) - عبد الوهاب البياتي: الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان - دار فارس للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ج1، 1995 م، ص: 39.
- (15) - عبد الوهاب البياتي: الأعمال الشعرية، ص: 39.
- (16) - المصدر نفسه، ص: 39-40.
- (17) - عبد القادر الرباعي: جماليات المعنى الشعري (التشكيل و التأويل)، دار جرير للنشر و التوزيع، أربد، الأردن، ط1، 1430هـ/2009م، ص: 199-200.
- (18) - صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1972م، ص: 7.
- (19) - أبو القاسم الشابي: ديوان أبي القاسم الشابي، تقديم و شرح: أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 1426هـ، 2005م، ص: 25.

-
- (20) - عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضايا و ظواهره الفنية و المعنوية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ط5، 1994م ، ص:308.
- (21) - السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث ، مقوماتها الفنية و طاقاتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، 1430هـ/2009، ص:256.
- (22) - صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، ص: 8-9.
- (23) - صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، ص: 302-303.
- (24) - صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، ص: 305.
- (25) - صلاح عبد الصبور: ديوان صلاح عبد الصبور، ص: 305.
- (26) - محمد عفيفي مطر: الأعمال الشعرية من مجمرة البدايات، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ، 1998م، ص:43.
- (27) - محمد عفيفي مطر: الأعمال الشعرية من مجمرة البدايات، ص:12.
- (28) - محمد عفيفي مطر: الأعمال الشعرية من مجمرة البدايات، ص:13.
- (29) - محمد عفيفي مطر: الأعمال الشعرية من مجمرة البدايات، ص:62-63.